ملامح العروبة في شعر العصر العباسي

الدكتور عصام عبد علي
أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة بغداد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

هذا البحث ليس من اهدافه ان يجري مسحا شاملا لمعاني العروبة وعناصرها في شعر العصر العباسي ، فلقد كان هذا الشعر عربيا شكلا ومحتوى حتى على لسان من تهجم على العروبة في بعض معانيه . ولكننا نحاول محاولة متواضعة في أن نتتبع بعض ملامح العروبة في معنى التعبير عن الوجود العربي والذات العربية على صعيد الشعر وقد يبدو البحث ذا طابع إنتقائي في بعض جوانبه وهو أمر قد يقود إلى ذاتية في الاحكام والتحليل والنتائج .

ومحاولتنا بعد ذلك لاتعتمد مفهوم العروبة بأبعاده الفكرية والسياسية المطروحة في فكر القرن العشرين أو في تصورات النظرية العربية الثورية التي نؤمن بها، ولعلنا اذا سلكنا هذا المسلك حملنا النص فوق مايحتمل وقادنا التفسير والتحليل إلى تطبيق احكام منقولة من هذا العصر متجاوزين عوامل التراث وطبيعة المجتمع ونسبية الزمان والمكان والظروف الموضوعية الاخرى .

والحقبة العباسية التي نحاول أن نتابع ملامح العروبة في شعر شعرائها قيل فيها الشيء الكثير عن سماتها وطبيعتها السياسية والاجتماعية وتطرف المؤرخون في تحليل اتجاهاتها السياسية وبداياتها وحاول بعض هؤلاء ان يصور الامر بعد انتهاء عهد بني امية ومايحمل من سماة عربية اصيلة ان الانقلاب العباسي بداية عهد للاجناس غير العربية ونهاية عهد العرب ، وهؤلاء المتطرفون في تفسير التاريخ يحاولون ان يصوروا الانقلاب العباسي وكأنه ثورة الموالي من الفرس ضد الحكام العرب وأمة العرب .

ولعل الدكتور فاروق عمر فوزي أكثر المؤرخين المحدثين نجاحاً في إلقاء اضواء جديدة على الدعوة العباسية معتمدا نصوصا ومصادر موثقة تؤكد دور العرب في هذه الدعوة، فقد كانت القبائل العربية المستوطنة في خراسان عاملا مهما من عوامل النصر والنقباء الاثناعشر كان اكثرهم عربا كما تشير القابهم ، كما كان انتظام عدد كبير من قبائل العرب في الحركة العباسية من اسباب الانتشار والصمود والنصر (١). ويبدو للباحث ان الدور الاسطوري لأبي مسلم الخراساني الذي احتوى على مبالغات مقصودة قد دفعت بعض المؤرخين القدامى والمحدثين إلى الاعتقاد بخراسانية الدعوة كما اعتمد هؤلاء على نصوص ومكاتبات مفسرين مضمونها بمعزل عن واقع الظروف وطبيعة الدعوة وتوفير اسباب النجاح لها :

وهذا التفسير الذي نحاول فيه نفي الهيمنة الخراسانية على الدعوة العباسية او نؤكد عدم وجودها بالشكل الذي وضعت فيه مع مبالغة وقصد وسوء تفسير يجب ان لايدفعنا إلى الاعتقاد بان الفرس لادور لهم في الانقلاب العباسي. وقد بدا هذا الدور اكثر وضوحا بعد النجاح واستقرار الحكم، فالعناصر الفارسية المسلمة وغير المسلمة وجدت الفرص واسعة في التعبير عن احقادها وكراهيتها للحكم العربي وقد عبر الشعر عن هذه الاحقاد والكراهية منذ بدء انتصار بني العباس :

ويبدو لنا ان الشاعر والامير العربي نصر بن سيار كان يستشرف المستقبل وهو يحذر العرب من الدعوة العباسية ورجالها ومع ذلك يجب ان لايغفل الباحث ان شعر نصر بن سيار لايخلو من مبالغة ودعاوة سياسة ضد الحركة العباسية كما في قوله : ـ

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها ... أن يغضبوا قبل ان لاينفع الغضب
مابالكم تلقحون الحرب بينكم ... كأن اهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم ... ممن تأشب لادين ولاحسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ... ولا صميم الموالي أن هم نسبوا
قوما يدينون دينا ماسمعت به ... عن الرسول ولاجاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن اصل دينهم ... فان دينهم ان تقتل العرب (٢)

والامير العربي نصر بن سيار يستنهض الهمم العربية والمشاعر الانسانية ويوجه دعوته إلى القبائل العربية ومنها من تعاون مع الدعوة العباسية لذلك فهو يشوه فكر الدعوة ورجالها وينسب اليها كل قبيح بحكم كونه رجل سياسة ينتمي إلى عهد ارتبط به ايمانا ومصيرا الا أن هذه المشاعر تعبر عن قلق عميق وحزن ومرارة وايمان بالمجد العربي الذي يتصوره الامير العربي معرضا للانهيار :

والحقيقة التي يجب ان لاتغيب عنا ان الحكم العباسي لم يكن حكما عربيا خالصا فهو يختلف عن حكم بني امية، ونظريته السياسية لها مبررات جديدة ذات طابع اسلامي والحكم في رجاله ومؤسساته منذ بدايته اعتمد عناصر أخرى مع العرب وهذا يعني ان الصوت غير العربي اصبح مسموعا له صداه في الشعر والآدب والثقافة عموما الا أن هذا الامر ليس جديدا فصوت الشعوبية كان موجودا في عصر بني امية والشاعر الشعوبي اسماعيل بن يسار

وصف بانه شديد التعصب على العرب وله شعر كثير يفخر فيه بالاعاجم انشد بعضه في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك وعوقب على ذلك عقابا شديدا (٣).

وشهد العصر العباسي بعد ذلك مظاهر الصراع في المجتمع العربي الاسلامي وخاصة في القرن الثالث والرابع فكانت المعركة بين العرب والشعوبية وبين الاسلام الذي هو روح العروبة واساس بنائها وبين الزندقة والحركات الملحدة الاخرى التي قادتها الشعوب غير العربية وعلى رأسها الفرس كالحركات الخرمية والمزدكية وما إلى ذلك، وقد تطورت الحركات المناهضة للعروبة والاسلام لتأخذ مظاهر اجتماعية وعسكرية هدفها تحطيم المجتمع العربي الاسلامي ووجود الامة العربية (٤).

وقد وجد شعراء الشعوبية الفرصة سانحة للتحريض والانتقام من رجال بني امية مثيرين مشاعر قادة بني العباس مستغلين الدوافع الدينية والسياسية ، فالشاعر المولى سديف يدخل على الخليفة ابي العباس السفاح ، وبنو امية او بقاياهم في مجلسه ويتحول شعر التهنئة إلى تحريض على قتلهم وكانت ابياته تنبض بالحقد واللؤم فهو يقول : —

لاتقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس

اقصهم ايها الخليفة واحسم عنك بالسيف شأفة الارجاس

وتتطاير رؤوس القادة العرب ابناء عمومه بني العباس على يد الجنود الخراسانية وتقع مذابح أخرى كما يروي التاريخ يشارك في التحريض عليها شعراء شعوبيون استغلوا بداية الانتصار العباسي ومظاهر مشاركة الفرس في ترصينه (٥).

ويدخل شعراء الشعوبية الحاقدين على امة العرب ومجدها ووجودها ميادين اخرى للتطاول على العرب ودولتهم تبدأ بشعوبية الشاعر الماجن بشار بن برد ودعوته الفرس إلى نبذ الولاء للعرب ثم ابي نواس وتهتكه وسخريته من العرب وتقاليدهم وتتسع دائرة الحقد لتشمل الافتخار بالمجد الفارسي القديم كما في شعر الحريمي وابراهيم بن اسحق وابي القاسم الزعفراني ثم يشهد القرن الرابع والربع الاول من القرن الخامس للهجرة شاعرا شعوبياً استغل الدين والتشيع في الهجوم على العرب وامجادهم ، مفتخرا بآل ساسان حالما بعودة دولتهم (٦) :

وهنا لابد من الاشارة إلى ان هذا العرض السريع من مظاهر شعر الشعوبية يجب ان لايدفعنا إلى الاعتقاد بان ملامح العروبة في شعر العصر العباسي كانت رد فعل لهذه الاصوات المنكرة التي ارتفعت هنا وهناك تعبر عن احقادها واوهامها . وهؤلاء الشعراء الشعوبيون إبتداء ببشار قد كتبوا شعرهم بلغة العرب واستلهموا التراث الفني للقصيدة العربية شكلا ومحتوى وهم بعد ذلك في ظل دولة خلفاؤها من صميم العروبة وكثير من قادتها الابطال من قبائل عربية عريقة فهم يعتزون بنسبهم وتاريخهم وشمائلهم ودفاعهم عن قيم العروبة والاسلام . وبشار الشاعر الشعوبي لايستطيع ان يمدح القائد العربي الا بما يرضيه ويؤكد عروبته ومطيع بن أياس لابد ان يدعو القائد معن بن زائدة بسيد العرب وفتى نزار وابي العفاة الذي يلوذ به الناس (٧). وكذلك يفعل ابو نواس وغيره في مدح الخلفاء والقادة العرب :

وقصيدة المديح في العصر العباسي بشكلها ومحتواها تعطي صورة واضحة لمظاهر العروبة ومعانيها في الشعر ولم يستطع شعراء العصر العباسي رغم مظاهر الحياة الجديدة ومكوناتها المتعددة ان يمسوا التقاليد المتوارثة لها برغم ادعاء ابي نؤاس وثورته غير الجادة على التقاليد الفنية لقصيدة المديح وسخريته من الرحلة والبكاء على الاطلال فهي منذ بدء العصر العباسي ترسم الصورة المثالية للانسان العربي البطل والقائد والحاكم على نحو مااعتقد به العرب منذ جاهليتهم ووفق ما الهمهم الدين الاسلامي من قيم ومثل تهذب النفس وتبني الذات العربية بناءا خلقياً واجتماعياً وبقيت معاني المروءة والسماحة والصبر والعفة والكرم والشجاعة ونكران الذات وما إلى ذلك من الخصال والشيم الرفيعة التي يعتز بها العرب ويتداولها الشعراء فكأن المديح يحمل للامة العربية وافرادها تربية خلقية قوية واطاراً لبناء الانسان من خلال قيم العروبة وروح الدين ومبادئه (٨) :

ولم تقف قصيدة المديح والرثاء والفخر عند الجوانب التقليدية انما كانت سجلا حافلا لامجاد الخلفاء والقادة العرب وهم يخوضون المعارك مع اعداء العروبة من بيزنطيين وترك ومتمردين آخرين على الخلافة في شرقي الدولة العربية وغربها . فالشاعر العربي وهو يرسم صورة البطل والقائد للخليفة وغيره ويعبر عن تعلق عميق بقيم العروبة وبدولة العروبة والإسلام وبأرضها وشرفها :

والصورة التي يرسمها الشعراء الاوائل في بدء العصر العباسي يبدو فيها الخليفة الانموذج الذي تلتقي وتتوضح في شخصه السجايا العربية من كرم وشجاعة وبأس وعفة وتتداخل معاني العروبة والاسلام وتتسع بعد ذلك لتشمل حماية الأمة والدفاع عن كرامتها وارضها . اما تأكييد النسب العربي للخليفة فهو ظاهرة قائمة تستحق الاهتمام فهي ليست صورة ترضي الخليفة بالمعنى القبلي او ترضي الشعراء فحسب وانما ترضي وجدان الامة التي يقودها بطل عربي له امجاده ونسبه العربي العريق . فأبو جعفر المنصور عند الشعراء ابن البيت العربي المؤثل والخليفة الهادى من قريش يعوذ به المسلمون أيام الخوف والرجاء والخليفة الرشيد له مكانة الانتماء المجيد إلى بيت من ابناء النبي العربي الكريم وفيه يقول الشاعر : —

ملك أبوه وأمه من نسبعة فيها سراج الامة الوهاج
شرباً بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج (١٠)

وتأخذ صورة البطولة العربية من خلال الخليفة والقائد أبعاداً أخرى ترتبط بالارض والدفاع عنها وحماية ثغور العروبة والاسلام ويبدو اثر المعارك الاولى التي خاضها العرب مع الروم واضحاً ، وملك الروم لايخفي ذلك في رسالته إلى هارون الرشيد فالمعركة ذات بعد قومي وهارون الرشيد ملك العرب اولا وعندما يحقق الخليفة انتصارا كبيرا على الاعداء يحتفل الشعراء به احتفالا كبيرا ويأخذ الحدث مكانه مؤرخاً بالشعر فهارون الرشيد في نظر الامة وكما يصوره الشعر إمام شُغل بالدين والدنيا والغزو والحج وعندما يتحقق تحرير الارض وتتوغل سرايا الجيش في ارض الروم تبدو صورة الخليفة في الشعر رجل ايمان وجهاد :

فمن يطلب لقاءك او يرده فبالحرمين او أقصى الثغور (١١)

وتصبح قضية حماية الثغور من الامجاد القومية التي تسجل للخليفه كما يقول مروان بن أبي حفصة في احدى مدائحه لهارون الرشيد : —

وسدت بهارون الثغور واحكمت به من امور المسلمين المرائر
وما أنفك معقودا بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم اعطاه جزية على الرغم قصرا عن يد وهو صاغر
حصون بني العباس في كل مأزق صدور العوالي والسيوف البواتر (١٢)

وكان آل مزيد من الأسر العربية الكريمة التي خلدها التاريخ والشعر من خلال ابطالها وهؤلاء من القبيلة العربية (بنو شيبان) التي لها التاريخ العريق في الشجاعة والدفاع عن ارض العرب وقد وجد الشعر في القادة من بني شيبان صورا عن صور البطولة العربية وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة ، فيهم الشمم والبأس والندى والروح العربية العالية ، وأكد الشعراء عروبتهم نسباً وفعلا فكانت المدائح التي قيلت فيهم وثائق دامغة تفصح عن دور القادة العرب ودور العرب أمة وقادة وجنودا في حماية الدولة العربية الاسلامية والوقوف بوجه المتربصين بارضها وثغورها .

وتبدو صورة البطل من خلال المدائح التي قيلت في هؤلاء القادة عربية ناصعة فالشاعر يعتمد الصورة المثالية التي يعتز بها العربي وهي تعتمد عناصر عربية تمتد إلى الصحراء وحياة البادية وعصر الجاهلية مهذبة معطرة بروح الاسلام وقيمته وحين تتداخل في الصورة عناصر قبلية فأن هذه العناصر تبدو في مجرى التراث العربي العريق للاخلاق والبطولة فالقائد الميمون والذائد عن الحمى معن بن زائدة احد قادة الرشيد يصوره الشاعر مروان ابن أبي حفصة في قوله : —

لـه راحتـان الحتف والغيـث فيهما ... أبـى الله الا ان تضـر وتنفعـا
لقـد دوخ الاعـداء معـن فاصبحوا ... وامنعهم لايدفع الـذل مـدفعـا
نجيـب مناجيب وسيـد سـادة ... ذرى المجد من فروعي نزار تفرعا (١٣)

ومن السيوف العربية التي سلها الخلفاء العباسيون الاوائل البطل العربي يزيد بن مزيد الشيباني الذي كان له دوره في الدفاع عن أرض العروبة وسحق اعدائها وقد خلّده الشعر وأشاد بشجاعته وعروبته وشمائله الكريمة فهو اكرم الناس من عجم ومن عرب وهو ضرغامة العرب مثل في حياته صورة الفارس العربي الكريم وفيه يقول الشاعر مسلم بن الوليد : —

ياأكرم الـناس مـن عجم ومن عرب ... بعـد الخليفة ياضرغامة العـرب
أفنيـت مـالك تعطيـة وتنهـبـه ... ياآفـة الفضة البيضـاء والذهب
أن السنـان وحـد السيـف ان نطقـا ... لاخبرا عنك في الهيجاء بالعجب (١٤)

ومسلم بن الوليد لايكتفي باضفاء هذه الامجاد على القائد العربي يزيد بن مزيد فهذا السيف العربي بيد الخليفة العربي هو عز الخلافة فهو يقول : —

إذا الخلافة عدت كنت انت لها عزا وكان بنو العباس حكاما(١٥)

والقائد العربي على أهبة الاستعدادللحرب والدفاع عن ارض العرب فهو ينتظر اشارة الخليفة لقيادة الجيوش وإنتصاراته على الروم تأريخ من المفاخر مجيد وهو في حياته ذلك الفارس الكريم الذى يلوذ به الناس في أيام السلم ، ولا يقترب من الترف والحياة اللاهية ، فحياته في السلم والحرب حياة الجندي العربي المتأهب للقتال :

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده يرمي الفوارس والابطال بالشعل
موف على مهج واليوم ذو وهج كأنه اجلُ يسعى إلى أمل
لايرحل الناس الا نحو حجرته كالبيت يفضي اليه ملتقى السبل
تراه في الامن في درع مضاعفة لايأمن الدهر ان يدعى على عجل
لايعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل (١٦)

والشاعر العربي قادر على وضع الاطار القومي لاية فضيلة عربية او امجاد حربية بدأت بالقبيلة ، وعندما يجد في مدح قائد عربي من حمير ما يحقق ذلك يتحول المجد إلى مكارم عربية ذات بعد قومي وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد في مدح قائد عربي من حمير ،

كانوا الملوك بني الملوك وراثة والملك فيهم لايزال يدور (١٧)
اعطاهم ذل المقادة قيصر — وجبى اليهم خرجه سابور

ويأتى الجيل الثاني من شعراء العصر العباسي وفي مقدمتهم ابو تمام والبحترى ، والعصر عصر المعتصم الخليفة العربي الفارس ، والقادة العرب يحققون الانتصارات على حدود الدولة العربية الاسلامية ويتعاملون مع فتن واضطرابات مخربه تستهدف الدين الاسلامي والعروبة والوجود العربي ، وعلى رأس هذه الفتن فتنة بابك الخرمي التي امتدت عشرين عاما وكانت أخطر حركة دينية في المظهر سياسية في الغاية والاهداف وهي استمرار للحركات التي تهدف إلى ضرب السلطان العربي ويبدو أن هذه الحركة كانت على صلة بالروم لتحطيم سلطة الدولة العربية وكانت هناك حركة اخرى فارسية يقودها المازيار ترمي إلى التخلص من سلطان العرب كما شهدت هذه الحقبة تحرش البيزنطيين الدائم بالثغور العربية(١٨).

وابو تمام مؤرخ هذه المرحلة يعبر في شعره احساس عربي أصيل وأيمان عميق بالدين الاسلامي وتتداخل وتتكامل في قصائده معاني العروبة والاسلام ، والفروسية العربية التي صورها الشعراء هي صدى لبطولة الفرسان العرب في هذه المعارك وأمجاد قائدهم الخليفة

المعتصم . والشاعر علي بن الجهم يشارك ابا تمام في هذه المشاعر فهو في مدائحه للخليفة المعتصم يعبر عن تقدير الامة العربية لبطولة القائد وعظمته وحفاظه على حرمة الارض العربية وسحق الغادرين الذين يريدون بها شرا كما يشير إلى أمجاده في معركة عمورية والقضاء على الفتنة الفارسية التي قادها بابك الخرمي ولا ينسى الاشارة إلى شمائل و خصال الخليفة العربي ونسبه العريق لتكتمل صورة البطولة العربية (١٩).

وفتح عمورية في قصيدة أبي تمام ملحمة من ملاحم البطولة العربية فالتأريخ فيها شعر والشعر تأريخ بصياغة متينة عالية ، وصورة المعركة تستوعب دنيا المعتصم وحياته وهو يلبي صوت المرأة العربية التي تصرخ (وامعتصماه) فتهز أرض العرب وتهدر جيوش وتسقط تنبؤات اهل التنجيم « والسيف اصدق أنباء من الكتب» والقائد العربي على رأس الجيش المحرر للأرض ، والفتح العظيم حقيقة كما يقول ابو تمام ويعجز الشعران يحتوى عظمته :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط بـه نظم من الشعر أو نثر من الخطب(٢٠)

وتأتي صور المعركة متتالية متلاحقة وشجاعة العرب ومنعه الحصون وقدرة وصمود المدافعين وفروسية وبأس وشجاعة العرب ومنعة الحصون صور النخوة العربية ، وتختلط المشاعر الاسلامية للصادقة بصور العروبة وأمجادها والبطولة النادرة للقائد العربي :

أبقيت جـد بني الاسلام في صعـد والمشركين ودور الشرك في صبب
تدبيـر معتصـم بالله منتقـم لله مرتقـب في الله مرتغـب
لـو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب

. الخليفة المعتصم لم يسع من أجل الخلافة فحسب وانما من أجل الدين والشرف والعروبة : ـ

خليفة الله جازى الله سعيك عـن جرثومـة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر مـن التعـب

وتأخذ المعركة بعدا قوميا عبر التاريخ العربي لترتبط بأيام أنتصار العرب الذين أعزهم الاسلام في معركة بدر ثم ينتقل الشاعر ليسجل طبيعة الصراع القومي بين العرب والروم ويضح هذه المعركة يوم انتصار حاسم للعروبة والاسلام على اعدائها فيقول : ـ

أن كان بين صرف الدهر من رحم موصولة او ذمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الاصفر المراض كأسمهم صفر الوجوه وجلت اوجه العرب

والشاعر أبو تمام الذي يسع قلبه أرض العرب حباً وحنيناً كما يقول : —

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا بالرقتين وبالفسطاط اخواني

هذا الشاعر العربي عاشق للبطولات العربية يرى فيها عز العرب ومجدهم القديم والجديد ويتعامل مع التاريخ تعامل العربي الصميم في صياغة البعد التاريخي للامجاد العربية فالخليفة المعتصم لاتكتمل هالة المجد التي تحيطه وهو فتى بني العباس إلا إذا احاطت به أنجم يعرب ونزار المعروفة بشرفها وسيادتها ونسبها الكريم عمومة وخؤولة (٢١).

وأبو دلف العجلي وانتصاراته على بابك الخرمي يسجلها الشاعر في وثائق من الشعر ذات فن جمالي عال (٢٢). وأمجاد هذا القائد الحربية وكرمه وفروسيته خلدها أبو تمام في قصائده ورأى في صياغة امجاد قبيلة الممدوح شعرا امجاد العروبة كلها : —

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب (٢٣)

فابو تمام يرى أمجاد القبائل العربية ومفاخرها وشجاعتها متكاملة فهي أمجاد العرب في مقاومة الاجنبي والدفاع عن كرامة العرب وعزهم وتتكرر صور الانتصارات العربية القديمة بالامجاد الحربية للقادة العرب وفي مدح أبي تمام للقائد العربي خالد بن يزيد ابن مزيد يرسم الشاعر صورة البطل العربي بفروسيته وشجاعته وهو يقاتل الروم وينتقل إلى المجد التاريخي للقائد وقبيلته ليخرجه من الاطار القبلي إلى الاطار القومي فهو يقول في مدح بني شيبان قبيلة القائد : —

فما دب الا في جيوشهم الندى ولم ترب إلا في حجورهم الحرب
أولاك بنو حساب ولا فعالهم درجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد وحيد من الاشباه ليس له صحب
به عرفت صهب الاعاجم أنه به أعربت عن ذات انفسها العرب
هو المشهد الفصل الذي مانجابه لكسرى بن كسرى لاسنام ولا صلب (٢٤)

وقائمة القادة العرب الابطال في شعر أبي تمام طويلة فيها صورة رائعة للبطولة والشمائل العربية فقائد الثغور والمدافع عنها أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري من القادة الاماجد الذين خلدهم أبو تمام في شعره وقد أغفل التاريخ دور هذا القائد الذي قاد غزوة إلى القسطنطية وبلغ اسوارها ووصف أبو تمام هذا الانتصار في قوله : ـ

لولا جلاد ابي سعيد لم يزل ... للثغر صدر ما عليه صدار
قدت الجياد كأنهن أجادل ... بقرى درولية لها أوكار
حتى التوى من نقع قسطلها على ... حيطان قسطنطينة الاعصار
اوقدت من دون الخليج لاهلها ... نارا لها خلف الخليج شرار
ألا تكن حصرت فقد أضحى لها ... من خوف قارعة الطريق حصار
لو طاوعتك الخيل لم تقفل بها ... والقفل فيه شبأ ولا مسمار (٢٥)

ويحتفل ابو تمام بقائد عربي آخر يوحد جهود العرب المقاتلين في معارك الدفاع عن الدولة العربية الاسلامية وهذا القائد هو ابو عبدالله حفص بن عمر الازدي إذ يسجل الشاعر أمجاده ويشير إلى فتنة خراسان التي استهدفت الاسلام والخلافة ورام الاعداء فيها دم الاسلام ، ثم يذكر دور القائد العربي في توحيد القوى العربية لدحر الاعداء فيقول : ـ

ضممت إلى قحطان عدنان كلها ... ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بد
فاضحت بك الاحياء أجمع الفة ... كما احكمت في النظم واسطة العقد
ولما أماتت أنجم العرب الدجى ... سرت وهي أتباع لكوكبك السعد

ويأتي دور الشاعر البحتري قبل بدء التدهور السياسي وينهج نهج أستاذه أبي تمام في الدفاع عن العروبة ومعانيها وقيمها ورجالها ويبحث عن نماذجها في القادة والرجال معبراً عن مشاعره الاصيلة الصادقة ويؤكد الشاعر عروبته في فخره معرفاً بنفسه وقومه فهو يقول : ـ

ان قومي قوم الشريف قديماً ... وحديثاً أبوة وجدودا
نحن أبناء يعرب أعرب الناس ... لسانا وانضر الناس عودا
وكأن الاله قال لنا في ... الحرب كونوا حجارة أو حديدا (٢٧)

ويتابع الشاعر البحتري انتصارات القائد ابي سعيد الثغري ويرى فيها مجدا عربيا شامخا كما يسجل امجاد القبائل العربية التي شاركت في الدفاع عن أرض العروبة ويرسم صورة رائعة للبطل العربي فيقول في مدح الثغري : —

بذّ الملوك تكرما وتفضلا ... وأحان من نجم الصباح طلوعا
مستيقظ الأحشاء اصبح للعدى ... حتفا يبيد وللعفاة ربيعا
متتابع السراء والضراء لم ... يخلق هيوبا للخطوب هلوعا
تلقاه يقطر سيفه وسنانه ... وبنان راحته ندى ونجيعا

وينتقل الشاعر إلى امجاد قبيلة القائد ويشير إلى انتصاراته فيقول : —

لله درك يوم بابك فارسا ... بطلا لابواب الحتوف قروعا
لما اتاك يقود جيشا ارعنا ... يمشي اليه كثافة وجموعا
وزعتهم بين الاسنة والضبا ... حتى ابدت جموعهم توزيعا

ويشير إلى انتصاراته على الروم في قوله : —

لما رميت الروم منه بضمر ... تعطي الفوارس جريها المرفوعا
كنت السبيل إلى الردى أن كنت في ... قبض النفوس إلى الحمام شفيعا (٢٨)

وفي مديح البحتري للمتوكل يشير إلى نسبه العريق كجزء من الصورة التي يجب ان ترتسم للخليفة فهو يقول : —

ياأبن الاباطح من ارض اباطحها ... في ذروة المجد اعلى من روابيها
ماضيع الله من بدو ومن حضر ... رعية انت بالاحسان راعيها (٢٩)

وتبدو عواطف البحترى العربية وهو يسجل مفخرة من مفاخر الخليفة المتوكل وهي عفوه عن القبائل العربية المتمردة ويحاول ان يثير لدى الخليفة حميته وروحه العربية ويذكره بان ابناء هذه القبائل هم رجاله نسبا ومصيرا فهو يقول : —

جاءتك اسرى في الحديد أذلة ... مجموعة الايدى إلى الاذقان
فافكك جوامعهم بمنك أنها ... سمرت على ايدى ندى وطعان
لك في بني غنم بن تغلب نعمة ... فهلم اخرى في بني شيبان
اعمام فتلة وهي امكم التي ... شرفت واخوة عامر الضحيان (٣٠)

والبحتري يشعر بالحزن والاسى للصراع بين القبائل العربية ويشكر الوزير الفتح بن خاقان ويشيد بدوره في الصلح بين هذه القبائل وعفو المتوكل عنهم بوساطته ويشكره بأسم العرب على حسن صنيعه ويقول في ذلك : ـ

ان العرب انقادت اليك قلوبها ... فقد جئت احسانا إلى كل يعرب
شكرتك عن قومي وقومك أنني ... لسانهما في كل شرق ومغرب (٣١)

والبحتري باحساسه العربي يشعر بالحزن والقلق عندما يغادر قائد عربي كبير موقعه العربي ويحذر من مغبة ذلك ويذكر بامجاده والفراغ الذي يتركه فالظلام بعد رحيله يخيم على الجزيرة والشام ويجف الفرات بعد أن كان بحرا زاخرا ويستعيد امجاده في حرب بابك وحروب الروم وينسب إلى القائد مكرمة القضاء على بابك وجلبه اسيرا إلى سامراء (٣٢) ويرتفع صوت الشاعر عاليا معلنا حزنه على القائد العربي الذي سلم إلى احد كتاب المتوكل لتعذيبه فهو يقول ـ

ياضيعة الدنيا وضيعة اهلها ... والمسلمين وضيعة الاسلام
نامت بنو العباس عنه ولم ... تكن عنه امية لورعت بنيام (٣٣)

ويقتل المتوكل الذي ضاق باستفحال امر الحكام الاجانب من الاتراك وحاول ان ينقل مقر حكمه إلى محل أخر يخلص فيه من نفوذهم ويكون فيه عنصر يؤيده هو العنصر العربي

ويتوجه إلى دمشق ولكن الاتراك اجبروه على الرجوع ويعود الخليفة إلى بغداد ليلاقي حتفه في مدينة الجعفرية على يد الاتراك وعلى رأسهم وصيف وصفا ويقتل معه ووزيره الفتح بن خاقان وتبدأ مرحلة بلاء على الخلافة وأعلان زوال حرمتها (٣٤) :

ويحزن الشاعر البحتري على الخليفة المتوكل ويتمنى لو كان قادرا على الدفاع عن رمز الامة وخليفة المسلمين ويعرض بالجنود الذين لم يقاتلوا دفاعا عن قائدهم ويدين من عمل على ذلك ويشعر بالالم العميق لان القائد العربي طاهر بن عبدالله بعيد في خراسان ليكون إلى جنب الخليفة في ايام محنته ويصد عدوان الاتراك . ويحزن الشاعر على بن الجهم وهو يرى هذا التجاوز على الخلافة فيقول : ـ

فيا لجنود ضيعتها ملوكها ... وبالملوك ضيعتها جنودها
ايقتل في دار الخلافة جعفر ... على فرقة صبراً وانتم شهودها
فلا طالب للثار من بعد موته ... ولادافع عن نفسه من يريدها (٣٦)

ويمتد جور الاتراك ويصبح الخليفة لعبة بأيدي رجالهم فيتجاوزون عليه سملا وخلعا وقتلا فهو ضيف طارىء يغادر وقت يريدون ذلك كما يقول الشاعر : ـ

للـــه در عصـــابة تـركـــيـــة ردوا نوائب دهرهـم بـالـسيف
قتـلوا الخلـيـفة احـمد بن محـمد وكسـوا جـمـيـع النـاس ثـوب الخوف
وطغـــوا فاصبـــح ملكنـــا متقسمـــا وامامنـــا فيـــه شبيـــه السيف (٣٧)

ويحزن الشعراء للفوضى الضارية ويتمنون زوال حكم الغرباء : ـ

اصبح الترك مالكي الامر والعالم مابين سامع ومطيع
ونرى الله فيهم مالك الامر سيجزيهم بقتـل ذريـع

ويقول أخر : ـ

ايها الترك ماتلقون للدهـر سيوفـا لاتستيل الجريحا
فاستعدوا للسيف عاقبة الامر فقد جئتم فعالا قبيحا (٣٨)

وتبدأ مرحلة الحكم البويهي والدولة العربية تشهد الانقسام والتمزق والانحسار على صعيد الخلافة التي فقدت قدرتها في التعبير عن وحدة الامة العربية وسيادتها. حيث سيطرت العناصر الاعجمية عليها .وكان بدء التسلط البويهي على بغداد صورة من صور وحشية الاجنبي المنتصر اذا امتدت وحشيته وشمل عدوانه الخلافة ومؤسستها وابناء البلد وكرامتهم. ويعبر الشاعر ابن نباتة بألم وسخرية عن سوء الحال وهو يصور وحشية الجنود الديالمة ينهبون ويعبثون فيقول : ـ

أاعـــذر قـومي والـرمـــاح تـلوم وذلك خـطب في الـزمان عظـيم
دعـوت بني ساسان غـير مـدافع إلى نهـب مـالي والـكـريـم كـ ريم
ومـــا ذاك من حـــب غيـــر انـــني اريـــم على البغضاء كيف اقيم (٣٩)

وابن نباتة لاينسى وهو في لحظات الحزن والغضب ان يذكر بأيام الذل التي نزلت بالفرس ايام انتصارات العرب عليهم ثم يحلم بابطال من فرسان العرب لمحو العار وإزالة الغمة التي ارهقت اهل بغداد والامة العربية :

ولابد أن نؤكد هنا أن الموجة العاتية الوافدة على الارض العربية لم تستطع اكتساح الوجود العربي وتهديم معاقل العروبة، فالتاريخ يحدثنا عن الحصون والمعاقل العربية الشامخة المتمثلة بالامارات العربية على ارض العراق والشام والجزيرة، حيث القادة العرب بشممهم وعزهم وقيمهم البدوية وثقلهم السياسي كامارة سيف الدولة وبني عقيل وبني مزيد وقبائل شعبان وخفاجة، وكان سيف الدولة في هذه الحقبة صورة للبطل العربي المنقذ والامل الذي يلجأ اليه العرب ويرون فيه حمى العروبة والمجد كما يصوره الشاعر العربي ابو الطيب المتنبي فارس الميدان الشعري في التعبير عن العروبة والوجود العربي وتحدي الغزاة الاجانب من روم وفرس وديالمة يشاركه شاعران آخران هما ابن نباته السعدى والشريف الرضي :

وابو الطيب المتنبي عبر في شعره عن أحساس عميق وحزين بتدهور العصر وسقوط القيم وانتهى إلى ادانة البنية الاجتماعية والسياسية للمجتمع وانتقل يبحث عن بطل عربي منقذ تتحقق على يديه الامال وتلجأ اليه العروبة في محنتها ووجد سيف الدولة فارس بني حمدان يحقق الغاية وينعش الأمل : وكان شعر المتنبي يتدفق غروبة وشمماً وحزناً وثورة في غزله ورثائه ومدحه وفخره ويؤكد الشاعر عروبته وهو فخور معتز بهذا الانتماء رغم تفرده وتميزه واعتزازه بشخصيته فيقول : —

مامقامي بأرض نخلة ألا كمقام المسيح بين اليهود

وترتبط قضية الاحساس بالغربة باحساسه بالعروبة كما في قوله : —

لابقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لابجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود (٤٠)

وإدانة الشاعر المتنبي المجتمع وحكامه ينطلق من احساس عربي اصيل وايمان بالعروبة فهو يقرر باحساسه السياسي ان الامة العربية لن تجد الفلاح والخير وأمرها بيد الاجنبي وحكامها أجانب من أتراك وديالمة وفرس فهو يقول : —

وأنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لاأدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم (٤١)

ويقرر الشاعر الانفصال عن هذا الواقع الاليم والتمرد عليه ورفض القيم التي تسود حياته فهؤلاء الملوك الذين يحكمون لايمتلكون صفات الفروسية والمجد فهم ليسوا عرباً ويدينهم مرة أخرى فيقول : —

ودهـر ناسـه نـاس صغـار وإن كـانت لهـم جثث ضخام
ومـا أنـا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الـذهب الرغـام
أرانـب غـير انـهـم مـلـوك مفتحة عيـونهم نيـام
بـأجسـام يـحـتـرئ الـمقـتـل فيهـا ومـأقـرانهـا الا الطعـام (٤٢)

وحزن الشاعر عميق على ماأصاب عصره من تناقض في القيم وضياع لمعاني الرجولة والاخلاق فهو يعيش تناقض الانسان العربي وصراعه بين مبدئية عالية وشمم واباء وبين ظروف قائمة تنال من هذا الايمان بالمبادىء وتحاول ان تتجاوز على شممه وصلابته وتدفعه إلى درك النفاق في ظل حكم الاجنبي فهو يقول :

أذم إلـى هـذا الـزمـان أهـيـلـه فـأعلمـهم فـدم واحزمهم وغـد
وأكـرمـهـم كلـب وابصرهم عم وأسهرهم فهد واشجعهم قـرد
ومـن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقـتـه بد

وهذا الرفض للواقع والمجتمع وقادته وبنيته يقود الشاعر إلى البحث عن مهرب وخلاص فالمدينة مدانة ، والصحراء والبادية فيهما الملجأ والامل والرجال ، ويجد الخلاص هناك حلماً او حقيقة حيث النبع والاصالة والرجال كما يقوده الرفض إلى البحث عن القائد الامثل فيجده في سيف الدولة ويعبر الشاعر عن تمرده وعزمه على الثورة في قوله : —

سأطلـب حـقـي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول مـا التثمـوا مـرد
ثقال اذا لاقـوا خفـاف اذا دعوا كثير اذا شدوا قليل اذا عدوا

فرجاله من الفرسان العرب محنكون شجعان لايعرفون التردد، والموت في فمهم شهد كما يقول الشاعر : —

إذا شئـت حـفـت بـي عـلى كـل سابح رجال كأن الموت في فمهم شهد

وعلاقة المتنبي بالبطل العربي سيف الدولة علاقة حب وأعجاب يمثل نادر للبطولة العربية

في حقبة افتقدت فيها معاني البطولة ورجالها فيجد الشاعر في انتصاراته نصراً للامة كما نجد الامة في ظله شيئاً من العز والامن والكرامة كما يقول الشاعر : —

ليس ألاك يا علي هما سيفه دون عرضه مسلول
كيف لايأمن العراق ومصر وسرايا ك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الاعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من اعزه الدفع عنه فيهما انه الحقير الذليل
أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل(٤٥)

والشاعر أبو الطيب يعبر عن مشاعر حب صادق للامير الحمداني ويشفق ويقلق عليه لما يحتمل من عبء كما يدرك باحساسه السياسي وشعوره العربي ان الارض العربية معرضة للانتهاك فليس هناك من يحميها غير سيف الدولة ، أما الحكام الاجانب فهم غير حريصين وغير قادرين . ويشعر المتنبي بالخطر المحدق الذي يستهدف القائد العربي الذي اولاه لنتقدمت جيوش الغزاة متوغلة في أرض العرب ويشير إلى صعوبة الحال ويلح على القائد العربي بالعودة ويذكره بأن اعداءه ليسوا الروم فقط وانما هناك روم آخرون خلف ظهر القائد مشيراً إلى الاعاجم ودسائسهم وحقدهم على أمة العرب والمتنبي يعبر عن حرصه وقلقه على هذا القائد العربي الشجاع كما يبدو في قوله : —

أمـا للخلافـة من مشفـق على سيف دولتها الفاصل
يقد عداها بلا ضارب ويسري اليهم بلاحامل (٤٦)

فسيف الدولة ليس بطلا من بني حمدان ولاحامياً للثغور من غزوات الروم فهو أيضاً سيف العرب بيد الخليفة يجد فيه النصرة والعون عندما يشعر بالضيق ويأخذ بخناقه حكام بني بويه .

ولقد كانت معارك سيف الدولة مع الروم ملاحم بطولية تمثل الشجاعة العربية والفروسية كما خلدها الشاعر المتنبي في قصائده محتفلا بانتصارات القائد واصفا جيوشه المتقدمة مؤكدا عروبته :

وفي صورة الرومي ذى التاج ذله لأبلج لاتيجان الا عمائمه (٤٧)

وتتداخل وتتكامل معاني العروبة والاسلام في مدح سيف الدولة كما في قول ابي الطيب:

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

تشرف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لاالعواصم (٤٨)

وابو الطيب المتنبي باحساسه العربي حريص على قبائل العرب يرى فيهم رجالا للقائد العربي وقوة قائمة ايام المحن والشدائد ويرى في التفافها حول البطل ترصينا للنصر والصمود وهو فخور بها وبثقتها بسيف بني حمدان :

فتى لايرى إحسانه وهو كامل له كاملا حتى يرى وهو شامل

اذا العرب العرباء رازت نفوسها فأنت فتاها والمليك الحلاحل

اطاعتك في ارواحها وتصرفت بأمرك والتفت عليك القبائل (٤٩)

ويعبر الشاعر العربي مرة اخرى عن هذا الحرص وهو يقدر دور القبائل العربية كمعاقل وحصون في وجه الهجمة الشعوبية ويدعو سيف الدولة إلى الرأفة بهم اذا ما تمردوا عليه فهم العشائر والصحاب والنسب يجمعهم تحت خيمة العروبة :

فقاتل عن حريمهم وفروا ندى كفيك والنسب العراب،

وحفظك فيهم سلفي معد وانهم العشائر والصحاب(٥٠)

ويدعو الشاعر ممدوحه الأمير مرة اخرى إلى ان يعامل القبائل العربية المتمردة عليه معاملة الاخوة والرحمة فهم رجاله وفرسانه :

لهم حق بشركك في نزار وأدنى الشرك في أصل جوار

لعل بنيهم لبنيك جند فأول قرح الخيل المنهار (٥١)

وابو الطيب يريد من القائد العربي أن يترفع عن الحقد والعصبية والثأر فهو ابن العروبة وبطل من أبطالها فيه تتمثل معاني الفروسية وصفات الرجولة الحقة وهو سيف الأمة في وجه أعدائها كما وصفه في قوله :

إذا الدولة استكفت به في ملمة كفاها فكان السيف والكف والقلبا

تهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وانك حزب الله صرت لهم حزبا
لامر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضبا (٥٢)

والشاعر ابن نباته السعدي ليس بعيداً عن سيف الدولة وحروبه واجاده، وفي ديوانه قصائد تسجل معارك البطولة التي خاضها سيف الدولة منها معارك الأحيدب ومرعش (٥٣) وقد رأينا كيف رفع ابن نباته صوت الاحتجاج عالياً عندما وطئت أقدام الديالمة بغداد، وقد عبر الشاعر عن احساسه بالعروبة وتحديه للموجة الغريبة العاتية وهدد بالرجال الفرسان القادرين على ازالة الاجنبي وهو يرمز إلى بغداد التي يحكمها الاجنبي ببابل فيقول:

أن لم تصبّح بابلا جرد تبارى في الاعنة
تذر الاعاجم كلهم وقلوبهم غلف الاسنة (٥٤)

ويفتخر الشاعر بقومه ويتوعد فيقول:

ولابد من يوم على الشرق هائل تصادم بيض الهند فيه الجماجم
هوت هممي إن لم أزر أرض بابل بيوم تزور الأسد فيه القشاعم (٥٥)

وابن نباته في شعره يستلهم روح البداوة وقيم حياة الصحراء ويفتخر بنسبه ولا ينسى العصبية القبلية ويرى في القادة نماذج للبطولة العربية التي حررت أرض العروبة يوم تقدم الزحف العربي تحت راية الاسلام لينهي اسطورة الاكاسرة والقياصرة. (٥٦)

وشاعرنا الشريف الرضي ثالث الشعراء من ذوي الاصوات العربية الأصيلة المتحديه والمدافعة عن الوجود العربي، فقد أحس احساساً عميقاً بالعروبة وقيمها وتراثها، وهذا الاحساس العربي له ابعاد وجذور عميقة في حياته الشخصية وتربيته وثقافته وطماحه الذي امتد ليأخذ بعداً قومياً ورأى في نفسه حقيقة او خيالا بطلا منقذا للعرب من الذل والهوان وقد فجرت هذا الاحساس في نفسه عوامل عدة تبدأ بنسبه العريق فهو عربي هاشمي أجداد أبيه وأمه من آل البيت وهو فخور بهذا الانتماء معتز به:

المجد يعلم ان المجد من اربي ولو تماديت في جد وفي لعب
اني لمن معشر ان جمّعوا لعلى تفرقوا عن نبي أو وصي نبي (٥٧)

والاحساس بالغربة في شعر الشريف الرضي يذكرنا بحالة المتنبي التي تعبر عن رفضه للمدينة وادانته للحياة فالرضي يشعر بالغربة في مجتمع تضيع فيه القيم ويحكمه الاجنبي وهو يشعر بضرورة الانسلاخ عن هذا المجتمع لأن الناس فيه اعداء الفاضلين:

ولقد عجبت ولا عجيب أنـــه كـل الورى للفاضلين أعـــادي

ثم يقول :

نحن في عصبة ترى الجور عدلا وتسمى الضـلال دار رشـــاد
في رجـال تهـزأ بـوفـد المعـالـي وديار تسطو على الوراد (٥٨)

وينتهي الموقف بالشريف الرضي الى رفض حياة المدينة اللاهية والفاسدة مع قيمها السياسية والاجتماعية والاخلاقية ويجد نفسه مضطراً الى ان يرى في حياة عرب الجاهلية بديلا يبعده عن الذل والهوان لولا الحرج الديني فهو يقول :

مقـام يـدنـس عـرض الأبـي ويلعـب بالقلـب الحـول
ولـو كنـت ذا هـمـة حـرة لرحلني الضيـم عـن منزلـي
ترى الجاهليـة احمـى لـنـا وأنـأى عـن المـوقف الأرذل
فلـولا الالـه وتخـوافـه رجعنـا الى الطابـع الاول (٥٩)

ويكشف رثاء الشريف الرضي عن أحساس واضح بالعروبة وشعوره بالخسارة عند فقدان القادة العرب من بني حمدان وعقيل ويبدو أن الشاعر أدرك بتجربته السياسية ان هؤلاء القادة مواقع أمل وتحد لمواجهة الغزو الاجنبي كما يرى في شخوصهم مجمل الشمائل العربية من كرم وشجاعة وثبات ويؤكد الشاعر على العروبة وكونها من عناوين المجد في اهله فهذا الانتماء ذروة المجد والفتى العربي هو القائد والفارس والبطل : —

ومن شيـم الفتى العربي فينـا وصـال البيض بـالخيـل العـراب
لـه كـذب الوعيد مـن الاعادي ومـن عاداته صـدق الضراب (٦٠)

ويتجاوز الشريف الرضي حدود النزعة القبلية في مفهوم القوم عندما يبدأ بالفخر بقريش (أنوف بني معد في الذرى)ويرى في مجد قومه مجد العروبة والاسلام وتتوسع دائرة الفخر ليرى عزقومه بعز الاسلام ومجدهم برفعة العرب ، والشاعر عندما يصف قومه بالملاجيء والحمى والملاذ يشير الى دورهم المجيد في بناء دولة العروبة وقد شرفهم الله بالرسول العربي (٦١) ، ولا ينسى أبعد التاريخي لقضية العروبةوهو قادر ان يكتب قصيدة الى امير فارسي اسمه بهاء الدولة يفخر بها ويشد بانتصار العرب في معركة ذي قار ويقول متحدثاً بأسم قومه : —

نذكركم بذي قار طعان ... وما جر القنا يوم الكلاب

عليها كل أبلج من قريش ... لصيق بالطعان وبالضراب (٦٢)

وولع الشاعر بالتاريخ ليس ولع مؤرخ فهو عند حديثه عن الامجاد العربية يضفي عليها كثيراً من عواطفه وهمومه واحزانه وروحه العربية وعندما يتحدث عن معركة ذي قار يشير الى تعسف الفرس وغرورهم لينتهي الى مجد العرب الذين اعزهم الاسلام وامدهم بالعزم والايمان ليحرروا الارض والانسان ويشعر بالاسى لضياع المجد وفتور الحمية العربية(٦٣) :

وصورة البطل في شعر الشريف الرضي تمثل النموذج العربي للبطولة ، يحاول الشاعر أن يرسمها من خلال المثال الرائع للانسان العربي القائد الذي يراه في نفسه وفي أبيه ورجاله الفرسان الذين يحلم بهم ، واستعادة المجد المضاع وأصالة النسب قضية أساسية في شخصية البطل فهو ابلج من قريش والرجال الذين يتوسم فيهم سملت البطولة والفروسية لهم أخلاقهم وكرمهم وترفعهم عن الدنايا وهو لا يريدهم ملوثين بأدران الحياة الجديدة ومفاسدها فهم من صفاء الصحراء ونقائها وحياة البادية وأصالتها (٦٤) .

واذ نودع الشريف الرضي ونبدأ رحلة الشعر العربي في القرن الخامس الهجري نرى مرحلة الانتكاسة في الحياة وفي الشعر شكلا ومحتوى ويدخل الشعر مرحلة تقليدية واضحة في المعاني والصور الا أنه لايقطع صلته بمعاني البادية والصحراء والتراث العلمي العريق وقد تضفى عليه مسحة صوفية أحياناً بها ضعف وهروب من الحياة وفيها شيء كثير من الحزن ومع ذلك لايفتقد الشعر العربي شاعراً لامعاً يقف على قدميه ويرتفع صوته عربياً عالياً هو الشاعر الابيوردى الذي يذكرناشعره بالمتنبى وابن نباته والشريف الرضي والشاعر عربي من بني أمية ومعتز فخور بهذا النسب كما يقول : —

واقرع ابواب الملوك بوالد ... حوى بابي سفيان أشرف منتمى (٦٥)

ويفخر الشاعر بعروبته على طريقة المتنبي والشريف الرضي يقول : —

وللفخر أغنى بـه لا الغنـي ... فعن كسر بيتي جيب العرب

وقد علم الله والناسبون ... ان لنا صفو هذا النسب(٦٦)

وتنتاب الشاعر احزان الغربة في ظل الحكام الاجانب وسيطرتهم وهويرى ضياع القيم وسيطرة العبيد والاعاجم :

اروح بأشجان على مثلها اغدو فحتى متى يزرى بي الزمن الوغد
أفي كل يوم دولة مستجدة يذل بها حر ويسمو بها عبد (٦٧)

والابيوردي يعارض السياسة الاعجمية ويشيد ببني العباس مؤكداً عروبتهم فخليفة بني العباس بنى الله مجده لتستظل به العرب كما يؤكد اعتماد أمة العرب في تحقيق النصر والخلاص من الاجانب الذين يتطاولون على هذا المجد ويثور الشاعر وينتظر الرجال القادمين من فرسان العرب لسحق الغزاة والاجانب الذين بيدهم زمام الامر المتطاولين على الخليفة العربي :

متى ارى مشرفيات يضرجها دم رست فيه أيدي الخيل والابل
فقد نزت بطن ما تحتها فطن بالعاجز الوغد والهيابة الوكل
وطبق الارض خسف لايزحزحه ذو ضجعة لاث بردية على فشل
وخالفت هاشما في ملكها عصب صاروا ملوكاً وكانوا ارذل الخول (٦٨)

والشاعر الابيوردي يعيش مأساة الامة العربية وهو يشهد المخاطر تحيق بالامة ، والروم يتجاوزون حدودها وينتهكون مقدساتها ، ويكتب قصيدة حزينة يرثي فيها حالة الامة ويشير إلى ان الدموع سلاح الضعفاء ويحذر بني الاسلام من مخاطر الهجوم الاجنبي ويدعو إلى نجدة اهل الشام عند استيلاء الافرنج على بيت المقدس : —

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

والقصيدة ذات روح اسلامي فيها حرارة الايمان ودعوة إلى نصرة الدين فهو يقول : —

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم

ولكن الشاعر لا يعتد بغير العرب في تحرير الارض ونصرة الدين فهو يستنهض الامة العربية وابطالها لرد العدوان : —

دعوناكم والحرب ترنو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية يطيل عليها الروم عض الابهام (٦٩)

والابيوردي يؤكد في مدائحه للخليفة والقادة العرب اهمية الخصال العربية ورسم الصورة البطولية لهم نسباً وجهاداً وكرماً وشجاعة فهو حريص في مدحه للخلفاء على تأكيد نسبهم العريق في هاشم كما يؤكد النسب العريق للقائد العربي صدقه بن منصور الاسدي الذي وجد فيه بقية من بقايا البطولة العربية كما وجد في بني اسد معقلا عربياً في حقبة اعجمية حالكة فهو يشيد بأمجادهم في الجاهلية والاسلام وان كانت الاشادة ذات طابع قبلي واضح (٧٠) .

ويقترب القرن الخامس من نهايته ويبدأ القرن السادس للهجرة والشعر العربي يمر بمرحلة من مراحل التقليد والاجترار والتكرار لمعاني الاقدمين ويبقى الشعر ذا نكهة بدوية وان كانت تقليدية وقائمة على الصنعة والتكلف كما تبقى الصور العربية المتوارثة في المديح قائمة ومكررة تجدها في شعر الطغرائي والارجاني وسبط ابن التعاويذي والشاعر الامير شهاب الدين ابو الفوارس سعد بن محمد التميمي وغيرهم من الشعراء الذين ترجم لهم وروى شعرهم العماد الاصبهاني في خريدة القصر .

ولا بد من الاشارة هنا إلى ان هؤلاء الشعراء حاولوا ان يعبروا عن احساسهم بالعروبة وبالاحداث التي مرت بالامة العربية الاسلامية وحروبها وكرروا واعادوا الصورة العربية للقائد العربي وان كانت على سبيل المحاكاة والتقليد.

فالشاعر الطغرائي الذي شهد عصر السلاجقة وضياع سلطة الخلافة وبقاء الرمز الديني لها يسجل حروب العرب مع الروم ويمجد ويحتفل بالانتصارات وخذلان المهاجمين كما أن مديحه لرجال الدولة يتناول دفاع القائد عن الاسلام والوقوف بوجه الطامعين الذي يعده الشاعر دفاعاً من أجل الدين والامة (٧١) .

أما الارجاني فديوانه لا يخلوا من قصائد اعجاب بالقادة العرب واشادة بالسجايا العربية وهو في مدحه العرب يتناول امجادهم التاريخية وانتصاراتهم على الفرس ويفخر بأمجاد القبائل التي دافعت عن كرامة الامة العربية، (٧٢) والشاعر الارجاني يؤكد عروبة الخلفاء العباسيين وشرف انتمائهم إلى قريش مشيراً إلى أمجادهم ومكارمهم (٧٣) :

والشاعر شهاب الدين ابو الفوارس يبحث عن القادة العرب وامجادهم وهو يفعل ذلك ايضاً في مدحه الخليفة العباسي في تأكيد نسبه الكريم ودوره في الدفاع عن الحمى والدين ومدائح هذا الشاعر لاحد القادة العرب من بني اسد تكشف احساسه بالعروبة ومعانيها في عصر الضياع والخذلان حيث يحتفل الشاعر بأمجاد هذا القائد وقدرته في رد عدوان الاتراك وتحرير ارض العرب (٧٤) :

ويشهد القرن السادس للهجرة وحشية الجيوش والحكام الاجانب من ترك وروم وفرس والبلاد عرضة لأطماعهم والخلافة ضعيفة لا حول ولا قوة لها ويصور الشاعر سبط بن التعاويذي هذه الحال ويرى صورة البطل المنقذ في صلاح الدين الأيوبي حيث أصبح الأمل والرجاء اذ تم على يديه استعادة بيت المقدس ويضفي الشاعر على هذا البطل معاني البطولة العربية والفروسية والايمان بالدين فهو سيف امير المؤمنين وحامي ثغور الاسلام، (٧٥) ويشارك شعراء مصر والشام في تمجيد الصورة البطولية الجديدة وتأخذ معاني العروبة بعداً دينياً واضحاً فالمعركة بين الاسلام وبين الشرك والحق والضلال، ونجد مثل الصور ذات الروح الاسلامية في شعر شعراء هذه الحقبة وتبدو معاني العروبة وروح الاسلام في هذه القصائد مع شعور ديني عميق وايمان بالنصر لأمة العرب والاسلام (٧٦) .

واذ يقترب الشعر العربي من نهاية العصر العباسي تناله موجة التدهور والضعف ويتحول إلى هياكل لفظية ويعبر في ضعفه وفقدان الروح الشعري عن حالة الامة في ايام التداعي والانكسار، فالامة مقبلة على انهيار سريع والاجنبي المتوحش يجتاح بغداد لتبدأ مرحلة انحسار وركود حاول فيها الذين يستهدفون امة العرب ان ينالوا من وجودها وبقيت الامة العربية وبقي الشعر معبراً عن حياتها في ايام النهوض والبناء والصمود والانكسار والازدهار :

المراجـع

١ : الدكتور فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، بيروت ١٩٧٧ ،ص ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ :

٢ : نصر بن سيار : ديوان نصر بن سيار ، تحقيق عبد الله الخطيب ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ٢٨ وانظر ص ٣٠ وما بعدها :

٣ : الدكتور محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري القاهرة / ١٩٧٠ ، انظر ص ٤٠٤ وما بعدها :

٤ : انظر مقالة الدكتور عبد العزيز الدوري عن الجذور التاريخية للاشتراكية العربية ص ٢٣٧ – ٢٤٦ في دور الادب في معركة التحرير والبناء ،القسم الثاني وقائع مؤتمر الادباء العرب الخامس – مطبعة العاني بغداد ١٩٦٥ .

٥ : الدكتور محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ،القاهرة / ١٩٦١ ص ٣٤٧ – ٣٥٠ :

٦ . الدكتور عصام عبد علي : مهيار الديلمي حياته وشعره ، بغداد ١٩٧٦ – انظر فصل الشعوبية في شعر مهيار ص ٢٧٣ – ٢٩٤ .

٧ . الدكتور حسين عطوان ، الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٧ وما بعدها .

٨ . الدكتور شوقي ضيف :فصول في الشعر ونقده ،القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٩ – ٦٠ وما بعدها :

٩ : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،القاهرة ١٩٧٦ ج ٨ ص ٢٢:

١٠. قحطان رشيد : مروان بن أبي حفصة وشعره ،النجف ١٩٦٦ ، ص ١٠١ وما بعدها :

١١. تاريخ الطبري : ج ٨ ص ٣٢٠ :

١٢. المصدر نفسه ج ٨ ، ص ٣٤٨ :

١٣. مروان بن ابي حفصة : ص ٢٤٦ :

١٤. ديوان مسلم بن الوليد : تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٣٠٢ :

١٥. المصدر نفسه : م ٣٢ :

١٦. المصدر نفسه : ص ٧ — ١١ :

١٧. المصدر نفسه : ص ٢٢٤ :

١٨. الدكتور عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول ، بغداد ١٩٤٥ ، ص ٢٣٠ — ٢٣٩ و ص ٢٤١ ، ٢٤٢ وما بعدها .

١٩. ديوان علي بن الجهم : تحقيق خليل مردم / لجنة التراث العربي / بيروت بدون تاريخ ص ٢٢٣ وانظر القصيدة كاملة ص ٢٢٠ — ٢٢٣ .

٢٠. ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي : تحقيق محمد عبده عزام / القاهرة ١٩٧٢ ، ج ١ ، انظر القصيدة ص ٤٠ — ٧٤ :

٢١. ديوان أبي تمام ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ :

٢٢. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٣٦٧ :

٢٣. المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٨ :

٢٤. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٧٧ — ١٩٧ :

٢٥. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١٧١ ، ١٧٢ وانظر شعر الحرب في أدب العرب الدكتور زكي المحاسني ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١٦٤ ، ١٧٢ .

٢٦. ديوان أبي تمام ، ج ٢ ، ص ١٢١ — ١٢٢ :

٢٧. ديوان البحتري : — دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ج ٢ ، ص ٦٣ :

٢٨. المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٢٩١ — ٢٩٤ :

٢٩. المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ :

٣٠. المصدر نفسه ج ١ ، ص ٥٠ :

٣١. المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٩ :

٣٢. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٣٨٣

٣٣. المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨١

٣٤. الدكتور عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥ ، ص ٤٦ وما بعدها .

٣٥. ديوان البحتري ، ج ١ ، ص٥٤ — ٥٦ :

٣٦. ديوان علي بن الجهم : ص ٦١ :

٣٧. أحمد أمين — ظهر الإسلام — المجلد الأول ، ط ٣ — دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٤ ص ٢١ :

٣٨. المصدر نفسه ص ٢٢ :

٣٩. انظر ديوان ابن نباته السعدي — تحقيق عبد الأمير مهدي الطائي ، دار الحرية بغداد ١٩٧٧ : ج ١ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

٤٠. انظر ديوان المتنبي — شرح البرقوقي ط ٢ — مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٨ ، ج ٢ ، ص ٥٢ — ٥٤ :

٤١. ديوان المتنبي ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١

٤٢. المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ :

٤٣. المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٩ :

٤٤. المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٢ :

٤٥. الديوان : ج ٣ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ :

٤٦. الديوان : ج ٣ ، ص ١٩٦ :

٤٧. المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٩ :

٤٨. المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٣٩ :

٤٩. المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٢٩٩ :

٥٠. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٨٩ :

٥١. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٢٥٩ :

٥٢. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٦٧٥ وما بعدها :

٥٣. ديوان ابن نباته : ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ :

٥٤. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٢٢٦ :

٥٥. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٢٧٠ :

٥٦. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، ٤٥١ ، ٥٦٩ :

٥٧. انظر للكاتب : الاحساس بالعروبة في شعر الشريف الرضي ، بحث معد للنشر في مجلة آداب الجامعة المستنصرية :

٥٨. ديوان الشريف الرضي : دار صادر بيروت / ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٢٩٨

٥٩. ديوان الشريف الرضي : ج ٢ ، ص ٢٦٠ — ٢٦١ :

٦٠. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١١٤ :

٦١. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٦١٥ — ٦٢٠

٦٢. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٩١ — ١٩٢ :

٦٣. المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٨٣ — ٤٨٦

٦٤. المصدر نفسه ج ١ ، ص ٩٤ ، ٣٢٥ ، ٤٦٦ ، ٥٦٨ ، ج ٢ ص ١٩

٦٥. ديوان الايبوردي / تحقيق الدكتور عمر الاسعد ، مطبعة زيد بن ثابت / دمشق ١٩٧٤ ، ج ١ ص ٤٥٦ :

٦٦. الديوان ، ج ٢ ، ص ٦ :

٦٧. المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١٠٢

٦٨. الديوان ، ج ١ ، ص ٢١٦ :

٦٩. الديوان ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ :

٧٠. الديوان : ج ١ ، ص ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦١

٧١. انظر ديوان الطغرائي / تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري دار الحرية / بغداد ، ص ٩٤ — ٩٥ و ص ١٨٤ :

٧٢. ديوان الأرجاني / طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ؛ ص ٧٧ :

٧٣. المصدر نفسه : ص ٩٠ ، ٩١ :

٧٤. ديوان حيص بيص : تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر / دار الحرية / بغداد ١٩٧٤ ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ، ٣٥٧ و ج ٣ ، ص ١٤ ، ٢٠ :

٧٥. ديوان سبط بن التعاويذي : تحقيق مرجليوث / مطبعة المقتطف / القاهرة ١٩٠٣ ، ص ١٩ ، ٢٥ ، ١١١ :

٧٦. الدكتور محمد كامل حسين / دراسات في الشعر في عصر الايوبيين / دار الفكر العربي / القاهرة — ١٩٦٤ ، ص ٨٧ وما بعدها :